

# إنشاقات الكنيسة

---

عنجرة 2013/2012

## الانشقاق الكبير

الكنيسة الشرقية في القرون الوسطى

1) الإمبراطورية الرومانية الشرقية في القرنين الخامس والسادس

كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية في الفترة الممتدة بين القرون الرابع والقرن السابع في حالة هدوء نسبي.

كان الأباطرة يسهرون على وحدة المسيحيين وكانت الوحدة الدينية في نظرهم، شرطاً أساسية للمحافظة على الوحدة السياسية وهذا ما جعلهم يتدخلون في شؤون الكنيسة بشكل مباشر ويشتركون في النقاشات والجدالات العقائدية. بلغت الإمبراطورية الرومانية الشرقية أوج (قمة) عظمتها في عهد الإمبراطور يوستينيانوس (527-565). ومن أشهر أعماله أنه عين لجنة من كبار رجال القانون لتجمع القوانين الرومانية وترتيبها وتنسيقها في المجموعة التي اشتهرت باسم الإمبراطور نفسه. وسهر يوستينيانوس على الوحدة المسيحية في إمبراطوريته وحاول التوفيق بين المسيحيين من «دوفيزيين» (القائلين بالطبيعتين في المسيح) و «المونوفيزيين» (القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح).

ومع الفتح العربي الإسلامي أصبح القسم الجنوبي من الكنيسة الأورثوذكسية في إطار الدولة الجديدة العربية الإسلامية بينما بقي القسم الشمالي من هذه الكنيسة يدور حول مركزه الطبيعي أي القسطنطينية إلى أن سقطت هذه المدينة في أيدي الجيوش الإسلامية سنة 1453.

أصبحت الكنيسة الشرقية بمختلف طوائفها (الملكية والنسطورية واليعقوبية) تعيش في ظهراية الإسلام الذي أثر فيها تأثيراً جذرياً.

رأى الإمبراطور يوستينانوس (527 – 565) في القرن السادس أن في الإمبراطورية البيزنطية، وعاصمتها القسطنطينية، خمس كنائس كبرى تشرف على الكنائس الأخرى، وهذه الكنائس الكبرى هي كنائس روما والقسطنطينية والإسكندرية وإنطاكية والقدس. فأصدر مرسوماً ملكياً قسّم به العالم الروماني المسيحي إلى خمس بطريركيات. وأُعترف لأسقف روما، وهو البطريرك الأول، بالمسؤولية الكبرى إذ دعاه "رئيس كهنة الله أجمعين".

ما هي البطريركية؟

البطريركية هي مقاطعة كبيرة تشمل مجموعة من الكنائس المحليّة، يرئسها أول الأساقفة ويحمل لقب "البطريرك" ويتمتع بصلاحيات واسعة في مجال التعليم الديني والإدارة الكنسية.

كانت روما، وهي البطريركية الأولى، تضمّ الغرب كلّهُ، أي أوروبا الغربية وشمال أفريقيا وبعض دول في وسط أوروبا، مثل بولونيا وكرواتية.

والبطريركية الثانية هي بطريركية القسطنطينية، وتشمل أوروبا الشرقية وبلاد اليونان وأسية الصغرى.

والبطريركية الثالثة هي بطريركية الإسكندرية. وتمتد إلى مصر كلّها وليبيا وبلاد الحبشة.

والبطريركية الرابعة هي بطريركية إنطاكية وتشمل سوريا ولبنان والجزء الروماني من العراق.

والبطريركية الخامسة وهي بطريركية القدس، ورقعتها فلسطين وشرق الأردن. وهي آخر البطريركيات تاريخياً وأقلّها عدداً.

علاقات البطريركيات بعضها مع بعض

إن أساس التنظيم البطريركي هو أن كل بطريركية مستقلة عن البطريركيات الأخرى في الشؤون الإدارية الداخلية. فلا يخضع البطريرك إلا للقوانين العامة التي سنّها المجامع المسكونية، وللقوانين والعادات المحليّة السائدة في حدود بطريركيته.

إن هذا الاستقلال لا يمنع أن تكون بين البطارقة روابط قوّة كنسيّة تضمّهم بعضهم إلى بعض. وقد عُرفت هذه الروابط في التاريخ باسم "الشركة الكنسية". فقد قامت بين البطريركيات الخمس شركة كنسيّة مبنية على وحدة الإيمان ووحدة الأسرار الكنسية الواحدة.

بالإضافة إلى هذه "الشركة الكنسية" الأساسية كان كل بطريرك منتخب يُعلم البطارقة الأربعة الآخرين بانتخابه، ويذكر أخوته البطارقة في القداس ويرسل أسقفًا أو كاهنًا يمثله لدى كل واحد منهم.

إن النظام البطريركي كان له حسنة كثيرة في مجال رعاية المؤمنين كنسيًا والاهتمام بهم روحياً. ومع ذلك فقد كان له خلال التاريخ الكنسي تأثير سلبي في وحدة الكنيسة الجامعة. فقد فصل شيئاً فشيئاً بطريركيات الشرق عن بطريركية الغرب، وهذا قد أدى في بدء الألف الثاني من حياة الكنيسة إلى انفصال الكنائس الشرقية عن كنيسة روما. كما جزأ بطريركية القسطنطينية الواسعة إلى مجموعة متعددة من البطريركيات المستقلة في أوروبا الشرقية.

## (2) حرب الأيقونات

نشبت هذا النزاع في عهد الإمبراطور لاون الثالث الذي منع تكريم الصور المقدسة (الأيقونات) وأمر بتحطيمها تحت تأثير اليهودية والإسلام. وكان تدخله هذا في شؤون العقيدة المسيحية محاولة عنيفة لإخضاع الكنيسة لحكمه وخاصة الرهبان الذين كانوا يدافعون بشدة عن استقلالية الكنيسة عن سلطة الإمبراطور الذي كان يعتبر نفسه «ملكاً وكبير الكهنة». وتميز رهبان العاصمة والبطارقة والأساقفة والرهبان الملكيون أي التابعون للبطريركيات الثلاث = أنطاكية والقدس الإسكندرية في الدفاع عن الإيمان المستقيم ضد البدعة الايقونوكلاستية (تحطيم الأيقونات) التي كانت قد انسلخت عن إمبراطورية الروم ودخلت في الدولة العربية الإسلامية الجديدة فأصبحت في ذمة الإسلام. واعتبر العرب المسلمون موقف الملكيين المعادي للإمبراطور بيزنطية بمثابة إعلان الولاء للخلافة الإسلامية وسمحوا للبطارقة الملكيين بالإقامة في مراكزهم شريطة أن يتخذوا من بين الملكيين العرب أبناء البلاد. ومن بين الذين دافعوا دفاع الأبطال ضد ضلال محطي الأيقونات نذكر القديس يوحنا الدمشقي وهو يوحنا ابن سرجوس ابن المنصور التغلبي وكان أبوه وجده من موظفي البلاد لاموي في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (685-705). غادر القديس يوحنا موطنه وأسرته وانتقل إلى دير القديس سابا بالقرب من بيت لحم ورفاه يوحنا بطريرك القدس إلى درجة الكهنوت.

## (3) الحروب الصليبية

أقرت الدولة الإسلامية للمواطنين المسيحيين حرية العبادة بوجه عام مع بعض الحدود بشأن بناء الكنائس الجديدة والتزوج من مسلمات ونشر الدين المسيحي. وكان المسيحي يدفع الجزية بدل اشتراكه بالحرب الخاصة. وشغل المسيحيون العرب المراكز المهمة والحساسة في الدولة الإسلامية. خاصة المراكز التي كانت تتطلب الدقة والأمانة في الدواوين والخزائن ، ونشأت في عهد المأمون (813-833) مناظرات بين اللاهوتيين العرب وعلماء الإسلام.

بقيت العلاقات بين نصارى العرب والمسلمين ودية إلى أن غزى الغرب الإقطاعي المشرق العربي بالحروب الصليبية. تطلق عبارة «الحروب الصليبية» على تلك الحروب التي شنتها أوروبا على ديار الإسلام لتخليص قبر المسيح من سيطرة المسلمين. وسميت بالحروب الصليبية نسبة للصليب الذي اتخذته المحاربون إشارة لهم. وللأسف الشديد أثرت هذه الحروب في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين العرب تأثيراً سلبياً كما ازدادت العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية توتراً بسبب هذه الحروب التي أضعفت الكنائس الشرقية فهاجر كثير من المسيحيين دار الإسلام ودُمرت الأديرة إلى أن أصبح المسيحيون في المشرق العربي في أواخر العصور الوسطى أقلية ضئيلة.

لا نريد هنا التكلم عن هذه الحروب بالتفصيل إنما نتساءل عن الأسباب التي أدت إلى هذه الحروب بحيث أن الدين كان أحد الحوافز التي دفعت الأوروبيين إلى شنّها دون أن يكون الدين الحافز الوحيد.

طلب الإمبراطور ميخائيل السابع دوكاس من بابا روما غريغوريوس المساعدة ضد الأتراك المسلمين الذين كانوا يدهمون إمبراطوريته وأعرب بالمقابل عن استعداداته للاتحاد مع كنيسة روما. لبى البابا أوربانوس الثاني نداء إمبراطور الشرق وفي مؤتمر كليرمون فيران سنة 1095 ألقى خطابه المشهور الذي أثار فيه حماس المسيحيين وحرصهم على حمل السلاح في سبيل إنقاذ قبر المسيح من يد المسلمين وفي عهد الإمبراطور الكسيوس قامت الحملة الصليبية الأولى تحت قيادة الراهب بطرس الناسك ولكنها هلكت بكاملها قبل وصولها إلى الشرق سنة 1097. وأعطى اسم الحرب الصليبية على الحملة الثانية التي اشترك فيها أكبر أمراء أوروبا واحتلت المشرق العربي بما فيه مدينة القدس سنة 1099. يذكر التاريخ 8 حملات صليبية أسس الصليبيون أثناءها إمارات على غرار الاقطاعات الأوروبية.

### 3. بداية الانشقاقات بين الكنيسة الشرقية والغربية

منذ بداية الكنيسة نرى من رسائل القديس بولس حيث انه يستنكر هذه الانقسامات بشدة. مع مرور الزمن او القرون نشأت الخلافات، وجماعات غير صغيرة انشقت من وحدة الكنيسة الكاثوليكية الكاملة بعض من هذه المجموعات ظلوا متحدين حول الاسقف وهكذا اصبحوا "كنائس خاصة من دون وحدة كاملة مع الكنيسة الجامعة" بينما مجموعات اخرى بما أنهم اضاعوا الخلافة الرسولية وبالتالي اضاعوا الاسقفية، هؤلاء لا يمكن تسميتهم بكنائس، وهكذا فإننا نطلق عليهم اسم "جماعات كنسية".

### ما هي اسباب الانقسامات في الكنيسة؟

الشرق والغرب عالمان مختلفان، من حيث العقلية واللغة وطريقة النظر الى الحقائق الروحية، وفي زمن غزوات البرابرة ازدادت الطرق تباعدا. ومع هذا كله لم تتم القطعية كليا.

اليونانيون (الشرق): كانوا متفوقين في الفلسفة والفكر وثقافتهم كانت عالية جدا.

الرومان (الغرب): كانوا برابرة اشداء، اقتبسوا الثقافة اليونانية، ثم تعلموا ان يكتبوا ويعالجوا المسائل الفلسفية بلغتهم، فأصبحت ثقافتهم مستقلة.

المسيحية اتت من الشرق وكانت يونانية في البداية، فأول اسقف على ليون (فرنسا) كان يونانيا.

اهم الاسباب التي حضرت الانشقاق (القرن الخامس):

1. الكنيسة الغربية كانت تواصل تقدمها اما الكنيسة في الشرق الاوسط بدأت بالانغلاق.
2. لم يعودوا يتكلموا نفس اللغة ففي الشرق كانت اللغة اليونانية والغرب اللغة اللاتينية.
3. لم يتمتعوا بنفس الطباع: في الشرق اكثر عفوية وفي الغرب تميزوا بالعقلانية.
4. ظهور الاسلام وانتشاره في شبه الجزيرة العربية مما أدى الى انغلاق الشرق عن الغرب اكثر واكثر.
5. حرب الايقونات: حيث امر الامبراطور منع تكريم الايقونات وأمر بتحطيمها متأثرا بالديانة اليهودية والاسلامية.
6. اسباب سياسية: كان بطريك القسطنطينية خاضعا للإمبراطور بينما كان بابا روما مستقلا وكانت له سلطات زمنية ايضا.
7. ثم حصل صراع بين البابا والامبراطور حيث أدى الى التباعد المتزايد بين الكنيستين.
7. الهرطقات سببت في انفصال كثير من الكنائس الوطنية مثل:

الكنيسة اليعقوبية في سوريا.

الكنيسة القبطية في مصر واثيوبيا.

الكنيسة النسطورية في العراق وايران، الكنيسة الارمنية.

كل هذه الاسباب ادت الى انكماش او انغلاق الطرفين على ذاتهما فحصل تجاهل وتعصب متبادل من قبل الطرفين.

الانقسام الكبير بين روما والقسطنطينية، بين العالم البيزنطي والعالم الغربي.

## (1) حوادث القطيعة

سنة 1043 اعتلى الكرسي البطريركي في القسطنطينية ميخائيل كيرولايوس. ولما كانت العلاقات بين القسطنطينية وروما مقطوعة منذ نحو عشرين سنة لم يبعث برسالة إلى البابا يعلمه بتسلمه منصبه الجديد.

وكان حلف سياسي عسكري أخذ في التبلور بين بيزنطة والبابا والامبراطور الجرمانى لحماية إيطاليا التي كان جنوبها تحت الحكم البيزنطي ومهددا بغزوات النورماندين. وكان هذا التقارب السياسي العسكري سيتبعه تقارب ديني. وهذا لم يكن يرغب فيه كيرولايوس بطريك القسطنطينية فأخذ يعرقل المساعي... فأمر بإغلاق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية. ثم أوعز إلى لاون رئيس أساقفة بلغاريا أن يوجه رسالة إلى يوحنا، أسقف تراني، في جنوبي إيطاليا. يهاجم العوائد والطقوس اللاتينية على أنها غير شرعية. فأحدثت هذه الرسالة بلبلة وعثرة ووصل أخبارها إلى البابا لاون التاسع فأوعز إلى الكردينال أمبرتو، العالم اللاهوتي أن يجيب عليها.

أعد الكردينال جوابًا قاسي اللمجة مرا ولكن الظروف لحسن الحظ لم تسمح بإرساله فبقي طي النسيان. في أثناء ذلك هزمت الجيوش البابوية والبيزنطية منفردة أمام النورماندين فكان لابد من التحالف العسكري فكتب الإمبراطور البيزنطي قسطنطين مونوماك والبطريك كيرولايوس رسائل مسلامية (تسليم وسلام) إلى البابا لاون التاسع. فأرسل هذا وفدًا إلى القسطنطينية برئاسة الكردينال أمبرتو مع رسائل جديدة تحمل عبارة «كل كنيسة تبتعد عن معتقد روما لا تعود تستحق لقب كنيسة».

وحدث أن البابا لاون توفي وشاع خبر وفاته في القسطنطينية قبل أن يصل إليها الوفد البابوي. فعزم البطريرك على تجاهل الموفدين وأصر على عدم استقبالهم. فلبث الكردينال همبرتو في العاصمة ينتظر رضى كيرولايوس وأخذ يجادل الرهبان جدالا عنيفًا باللغة اليونانية التي كان يحسن التكلم فيها.

أما رفض البطريرك: دخل الكردينال المتهموس كنيسة أجيا صوفيا يوم السبت 16 تموز 1054 قبل الذبيحة الإلهية ووضع على الهيكل صك حرم البطريرك وخرج أمام ذهول الشعب والإكلروس القسطنطيني.

أحدث ذلك الحرم دهشة وأستياء وغضبًا. بعد ثمانية أيام أي في 24 تموز اجتمع السينودس الدائم في كنيسة أجيا صوفيا وأحرق صك الكردينال ورشق بالحرم المبعوثين البابويين. أمام ثورة الشعب الغاضب اضطر أمبرتو ورفقاؤه إلى الرحيل.

لنتساءل اليوم = ما قيمة الحرم الذي وضعه الكردينال؟ إن البابا الذي أوفد هذا الكردينال وصُحبه قد توفي فهل بقيت له صلاحيات أن يتكلم باسم البابا المتوفي؟ هل فوضه البابا ليعامل البطريرك القسطنطيني هذه المعاملة ويحرمه؟ يشك اليوم المؤرخون في صلاحيات هذا الكردينال المتهموس العنيف ففي قيمة الحرم الذي أنزله بشخص كيرولايوس البطريرك لا بالكنيسة البيزنطية؟ ثم نلاحظ من جهة أخرى أن الحرم «ردة فعل» الذي صنعه البطريرك كان موجّهًا إلى «الوفد الروماني»، الكردينال همبرتو ورفقاؤه، لا ضد البابا والكنيسة الرومانية.

## (2) الأسباب والسوابق

لنتذكر بسرعة الحلقات التي سبقت القطيعة:

- 1- قضية شرلمان والبيزنطيين – وصلت إلى شرلمان ترجمة سقيمة لقرارات المجمع المسكوني النيقاوي الثاني المنعقد سنة 787.
- 2- قضية أقحام كلمة «والابن» في قانون الإيمان وأذيالها
- 3- قضية فوتيوس / أغناطيوس وتدخل روما. قضية شائكة لم يكن حلها لصالح الكرسي الروماني.

ساهم في هذه الهزات التباعد المتزايد بين بيزنطة وروما :

- 1- ضعف البطريركيات الشرقية الثلاث التي كان بإمكانها أن تلعب دور الوسيط وتحفظ التوازن بين الجباردين. نتج هذا الضعف (أ) عن نمو القسطنطينية على حسابها (ب) عن التصدع النسطوري الذي سلخ منها عددًا كبيرًا من ابنائًا (ج) عن لاصدع المونوفيسي بعد المجمع الخلقيدوني والذي نتج عنه نشوء الكنيسة السريانية اليعقوبية والكنيسة القبطية (د) عن وقوعها تحت الحكم العربي الإسلامي.
- 2- تقليص الدولة البيزنطية وذلك بانسلاخ الشرق السامي ونشؤ القومية اليونانية.
- 3- القطيعة السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية والبابوية. في أواسط القرن الثامن خرجت روما من حكم البيزنطيين ولم يعد داخل حدود الإمبراطورية البيزنطية أي مقاطعة مرتبطة كنسيًا بالبطريركية الرومانية.
- 4- تطور الغرب بسبب قدوم شعوب جديدة ليس لها أية علاقة تاريخية بالشرق المسيحي كانت البابوية الرباط بين الشرق والغرب وجسر التفاهم بين الحضارتين. ولكن بارتباط البابا بالعالم الغربي وسياسته انتصب طرفًا فيالتزاع رغم أن مهمته الأولى المحافظة على الوحدة.
- 5- انحصار هم البابا بالغرب وتقلص اهتمامه بالشرق. كان تدخله النادر في الشرق غير مرفق إذ أراد أن يعامل بطاركة الشرق كما يعامل أساقفة الغرب الخاضعين له مباشرة.

كان المجمع النيقاوي الثاني الملتئم سنة 787 آخر مجمع يلتقي فيه الشرق والغرب.

وعوامل كثيرة غيرها خارجة عن نطاق الإرادة أدت إلى هذا التباعد المتبادل:

يؤخذ على الشرق البيزنطي والعالم رفض تفهم الأوضاع الجديدة في الغرب. ويؤخذ على البابوية إنها ربطت مصيرها بالغرب وصارت طوفًا. لم تسع إلى الجمع. في نطاق وحدة جديدة، بين العالم البيزنطي والعالم الغربي. ويؤخذ على كليهما انكماشها وانغلاقهما على ذاتهما. فنتج تجاهل متبادل وتعصب متبادل للتقاليد والثقافة الخاصة. وقضى على التنوع في التفكير والعادات.

قلنا أن قطيعة 1054 حلقة من سلسلة لم يهتم لها المعارضون بل تابع الشعب علاقاته المتبادلة كأنه لم يحدث شيء. إلا أن التصلب تكون فيما بعد (1) بسبب الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية (2) بسبب التطور اللاهوتي في الغرب.

### (3) الحملة الصليبية الرابعة (1204-1261)

الحروب الصليبية، لأسبابها ونتائجها مدونة في كتب التاريخ العام. إنما يهمنا هنا أن نذكر الحملة الرابعة لما كان لها من سيء التأثير على العلاقات بين الشرق والغرب.

سنة 1155، لما إحتل الصليبيون جزيرة قبرص ذبحوا سكانها اليوم واذلوههم. وبعد نحو 27 سنة أ عام 1182 ثار سكان القسطنطينية على اللاتين الساكنين فيها وذبحوهم. فعمّقت هذه الأعمال هوة الخلاف وملأت القلوب حقدًا وضغينة.

وفي سنة 1204 جهزت حملة صليبية رابعة كان هدفها الأول مصر لكنها انحرفت واتجهت نحو القسطنطينية واستولت عليها وخربتها ونكلت بالسكان وأسست دولة لاتينية ونصبت بطريكاً لاتينياً بدل البطريرك البيزنطي الذي انتقل أثر ذلك إلى شاطئ. كان ذلك مخالفاً لأوامر وتوجهات البابا اينوشنسيوس الثالث الذي منع الصليبيين عن مهاجمة إحدى الأراضي المسيحية وهددهم بالحرم... استاء البابا جداً لكنه أخيراً رضخ للأمر الواقع. هذه الحملة المشؤومة حملت الروم على الاقتناع بأن البابا يريد أن يسيطر على الشرقيين ولو بالعنف وعمقت الهوة بين الكنيستين البيزنطية والرومانية وأثارت حقد الروم على الكنيسة اللاتينية. ولا تزال أثارها العميقة في قلوب اليونان حتى اليوم.

#### (4) التطور اللاهوتي في الغرب

والذي عمق الهوة أيضاً بين الكنيستين هو تطور اللاهوت الغربي بسرعة بعيداً عن التقليد البيزنطي وظهور المدرسة السكولاستيكية اللاهوتية كان التطور شاملاً في المجالات الليتورجية والشرع واللاهوت النظري والمسلكي. لكن الشعب البيزنطي يهتم بالبدعة كل تجديد وتطور تفرد به الغرب.

#### (5) محاولات لإعادة الوحدة بين القسطنطينية وروما

##### أ- محاولة ليون سنة 1274

خاف الإمبراطور ميخائيل الثامن من تحالف الغرب عليه فاجتمع البيزنطيون واللاتين في مجمع ليون سنة 1274 ووقعوا على صك الاتحاد لم يعيش طويلاً. استمر ثماني سنوات لأنه كان من صنع السياسيين لا ينبع من رغبة شعبية حقيقية.

##### ب- محاولة في فلورنسا

انعقد في فلورنسا (مدينة إيطالية) مجمع (سنة 1439) ضم البيزنطيين واللاتين هدفه الوحدة. فبعد جنالات طويلة وقع الروم على وثيقة الاتحاد. إلا أنهم لما عادوا إلى بلادهم تنكروا للاتحاد بسبب المقاومة الشعبية له. وما حمل الساسة الروم على قبول الاتحاد مع الكنيسة اللاتينية إلا الخوف من الاتراك العثمانيين والرغبة في الحصول على مساعدات عسكرية من الغرب لصعد الاتراك الذين وصلوا إلى أبواب القسطنطينية.

ما كان موقف البطريركيات الملكية من قطيعة 1054 وأبعادها؟ أشبه موقف البطريركيات الملكية بموقف دول «عدم الانحياز» بين الجبارين المتنافسين المتخاصمين. وقفت البطريركيات الأنطاكية والأورشليمية حيث الملكيون (الخلقيدونيون) هم الأكثرية موقف المسالمة بين الطرفين. أما في مصر فكان الأقباط المونوفيسيون وهم الأكثرية بعيدين ومنفصلين عن الكنيستين كليهما. أما الملكيون الأقلية فلم يتدخلوا ولم ينحازوا لفريق ضد الآخر. أرسل البطريرك كيرولايوس رسالة مسهية إلى زميله بطريرك أنطاكية بطرس الثالث وكان رجلاً مترناً تقياً محباً للسلام. فأجاب برسالة لطيفة أظهر فيها أن التقاليد والعادات هي أمور ثانوية وأن بعضها موجود عند الروم أنفسهم. وهذا لا يدعو إلى القطيعة والحرم «فالمحبة تدعو الأخوة إلى التسامح» ويتوسل إليه ليعود إلى الوئام والاتحاد. واستمرت الكنائس الملكية متحدة مع روما والقسطنطينية وظلت العلاقات قائمة بينهما وبين الكنيستين الجبارين إلى أن تسلم زمام إدارتها الروحية الإكليروس القسطنطيني اليوناني.

لما وقعت قطيعة 1054. كانت الكنائس الملكية تحت الحكم الإسلامي بعيدة عن سلطة الإمبراطور البيزنطي والبطيريك القسطنطيني. ولما قدموا الصليبيون ونصبوا لاتين على أنطاكية وأورشليم إتجأ البطاركة الملكيون الأنطاكيون إلى القسطنطينية. وكان الملكيون واللاتين يعتبرون أنفسهم اتباع مذهب واحد ومعتقد واحد. وفي البطيركية الأورشليمية لما نصب الصليبيون بطيرغاً لاتينياً خلفاً للبطيريك سمعان الذي توفي في قبرص بقي الإكليروس والأساقفة الملكيون في مناصبهم وخضعوا لسلطة البطيريك اللاتيني. أما الأرمن فقد قبلوا قرار الاتحاد مع الكنيسة الرومانية في مجمع فلورنسا ولم يدع الاتحاد لأن الرهبان عارضوه أرمنياً فعادوا إلى الانفصال.

واليعاقبة اجتمعوا بعد مجمع فلورنسا في روما سنة 1443-1445 ووقع صك الاتحاد المطران عبد الله رئيس أساقفة الرها باسم الكنيسة. والكلدان قدموا خضوعهم للكنيسة الرومانية بشخص المطران تيموتائوس متربوليت طرسوس. وقدم نواب بطيريك الإسكندرية القبطي كتاباً يعترفون فيه دون جدال بسلطة الحبر الأعظم.

غير أن اتحاد الكنائس الشرقية بالكنيسة الرومانية لم يعمر طويلاً لأن العثمانيين كانوا أقوى عامل يحرض الشرقيين على متابعة القطيعة لتبقي هذه الكنائس تحت سيطرتهم.

بعد مجمع فلورنسا وقعت القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين المسلمين وكان هؤلاء يطمعون بالسيطرة على الغرب الذي كان يهددهم ويحاربهم. فلم يكن من مصلحة الأتراك إلا تفرقة المسيحيين واحباط كل مسعى لإعادة وحدة الصفوف. هجروا الإنقسامات الراهنة وجعلوا من كل طائفة أمة يتمتع رئيسها بالسلطة الدينية والمدينة. وكان السلطان العثماني يثبت البطاركة بفرمان أو يخلعهم.

ولما منح السلطان العثماني بطيريك القسطنطينية سلطة كل كافة المسيحيين (الذي تحت حكمه) صار هذا استدخل في شؤون كنائس أنطاكية وأورشليم وغيرها بإرسال كهنة وأساقفة يونان موالين له ومعادين للغرب. وكانت البطيريكيات الثلاث قد دخلت تحت الحكم العثماني سنة 1516-1517.

لقد سيطر البطيريك القسطنطيني على بطيريكيتي الإسكندرية وأورشليم سيطرة تامة لما نصب على كل منهما بطيرغاً يونانياً موالياً له ومعادياً لروما. ومات آخر بطيريك عربي دوروثاوس الثاني سنة 1534 في أورشليم فخلفه جرمانوس اليوناني فابتدأت سلسلة البطاركة اليونان إلى يومنا هذا.

أما في أنطاكية فلقي مقاومة العنصر الوطني العربي إلا أنه توصل إلى إرسال بعض المطارنة اليونان. وبقيت سلسلة البطاركة العرب تحت الاحتلال العثماني زهاء مئتي سنة إلى أن تدخل البطيريك القسطنطيني سنة 1724 ورسم بطيرغاً يونانياً مناوئاً للبطيريك العربي الموالي للقسطنطينية وروما في شخص سلفستروس القبرسي وزوده بالفرمان السلطاني فانشطرت الطائفة إلى طائفتين بوجود بطيركين = بطيريك يوناني معاد لروما وبطيريك عربي موال لروما والقسطنطينية معاً. ولكن البطيريك القسطنطيني حرم البطيريك العربي سنة 1725. وهكذا نشأت الكنيسة الرومية الملكية الكاثوليكية والكنيسة الرومية الأرثوذكسية في البطيركية الأنطاكية.

بعد فشل مجمع فلورنسا تجمدت حركة الاتحاد بسبب الاحتلال العثماني والعداء بين العثمانيين والغرب. إلا أن عمارة العثمانيين وقوتهم البحرية قد تحطمت نهائياً في موقعة ليبانت سنة 1571. وانكسرت الجيوش العثمانية البرية شر كسرة على يد يوحنا سويسكي ملك بولونيا على أبواب فيينا سنة 1683. من بعدها لم يبق للعثمانيين قائم.

ولما فتر العداء بين الدول الإسلامية والدول المسيحية الغربية عقدت المعاهدات السلمية بين السلطان سليمان القانوني والملك الفرنسي فرانسوا الأول في أواسط القرن السادس عشر وحصلت فرنسا على حق حماية المسيحيين في الشرق وضمنان حريتهم



الدينية وحقوقهم الأساسية. فاقبمت القنصليات الأوروبية وتوافد المرسلون الغربيون إلى الشرق. في مطلع القرن السابع عشر (1625) وصل اليسوعيون والكبوشيون والكرمليون إلى حلب واستقروا فيها ثم انتشروا في صيدا ودمشق وطرابلس. كانت رسالتهم الاهتمام بالمسيحيين الفرنج أعضاء القنصليات والتجار. إلا أن مطران حلب الملكي ملاطيوس كرامة (1612-1634) قد أوامهم في مطرانيته ودعاهم ليثقفوا طلبة الكهنوت وما عتموا أن فتحوا لهم اديورة وأنشأوا مدارس لتعليم الأولاد الملكيين وترجموا الكتب الدينية إلى اللغة العربية واهتموا بالتعليم المسيحي والوعظ ولاسيما في كنائس الموارنة. وخلقوا نهضة دينية وأدبية وإنفتاحا على الغرب. فكانوا صلة بين روما والإكليروس الملكي وساعدوا على ترجمة الكتب الطقسية وطبعها في روما على حساب «مجمع انتشار الإيمان».

من جهة أخرى قام البابا غريغوريوس الثالث عشر وأسس في روما مدرسة لاهوتية عالية سنة 1575 لتربية الإكليروس الروم ثم فتح سنة 1583 في روما المدرسة المارونية فتثقف عدد كبير من المطارنة والكهنة والعلمانيين الشرقيين الذين أناروا الشرق والغرب بعلمهم وفضيلتهم.

ونبغ كثيرون من خريجي روما – موارنة وروم وملكيين – وانتشروا في جامعات أوروبا وخلقوا حركة الاستشراق بتعليم اللغات الشرقية وإقامة دراسات عن تراث الشرق وإنشاء مكتبات تحوي الألوف من المخطوطات الشرقية الثمينة. والذين عادوا إلى الشرق، كهنة أو علمانيين، فتحوا المدارس وثقفوا الإكليروس ونوروا الشعب بوعظهم وتعليمهم وألّفوا الكتب الدينية وغير الدينية ونشروها بين الشعب.

في أواخر القرن السابع عشر نشأ جيل من الشبان المسيحيين المثقفين الراغبين في الحياة الرهبانية والرسولية فأسسوا الرهبانية المارونية والرهبنة الملكية الشويرية الحلبية والرهبنة المخلصية فساهموا في نهضة البلاد بالتعليم والمدارس ونشر الكتب ولاسيما بمثلهم الصالح.

قدحت شعلة النهضة العربية الحديثة في حلب ثم في دمشق بالاحتكاك مع الغرب لاسيما بواسطة المرسلين الافرنج وذلك في القرن السابع عشر ثم انتقلت على يد الرهبان السوريين إلى لبنان في بدء القرن الثامن عشر ومن لبنان ستنشر في مصر وفلسطين وسائر البلاد العربية.